النزعات الفكرية الإقليمية والإثنية والطائفية في العالم العربي المعاصر

للأستاذ الدكتور رشدي فكار
جامعة محمد الخامس
الرباط

الملخص

قبل ظهور الإسلام كانت النزعات العرقية والإقليمية والمادية تتمحور حول الكلأ والماء ومكانة القبيلة أو العشيرة.

وجاء الإسلام لتتآلف هذه النزعات تحت راية الإسلام بقيمه الخالدة ومبادئه الشاملة لتوحيد العرب في الجزيرة العربية أولا ـ مرتكزة على ربط المعطيات الدنيوية ـ بما هو أخلد وأبقى باسم وحدانية الله.

وقد شغلت النزعات الطائفية حيّزًا عريضًا من مسيرة أمتنا ـ مما جعل الإنسان العربي يعيش الانفصال والازدواجية في داخله، وقد حمل لنا تاريخ المؤرخين الصور المختلفة لهذا الصراع إلى جانب رواسب الشعوب الداخلة في الإسلام لتتسع دائرة التمزق لجسد الأمة، ولهذا آن الأوان أن نطرح علمية تاريخ أمتنا، وفلسفته لإعطاء مزيد من الإشراق لمسيرة أمتنا التاريخية في مختلف العصور.

وهناك ثلاث محاور توجب إعادة النظر في تقنين هذه المسيرة التاريخية وهي: المصادرة ـ التلوث ـ الضياع.

وبالنسبة للمصادرة هناك كثير من الوقائع والأحداث التي صودرت في عصرها، ولم يسمح لها بالمرور إلى الفترات التالية ـ لأنها أحداث ووقائع لا يسمح بتداولها. أما التلوث التاريخي فنعني به اختلاف نظر المؤرخين إلى الأحداث والوقائع فمن تجميد للأحداث لدى البعض إلى نقد شديد لها لدى البعض الاخر.

أما الضياع التاريخي فمن المعروف أن هناك جزءًا كبيرًا من التاريخ الإسلامي قد ضاعت وثائقه أثناء الحروب والغزوات والصراعات أو تلفت أو أتلفت. لذا لابد أن نضع في حسابنا هذه المعايير عند طرح علمية التاريخ لتراث المسلمين. ويتم ذلك عن طريق غربلة التاريخ مما علق به من أهواء ـ احتكامًا إلى العوامل الرئيسية والمؤثرة في الوقائع والأحداث ـ أي العوامل الاقتصادية، والدينية والتربوية والنفسية والجغرافية والديموجرافية.. الخ.

المتغيرات بالنسبة للإنسان المسلم في هذا العصر لا يمكن الحدّ من تطلعاته المستقبلية شريطة أن تعمل لصالح ثوابته وشمولية أمته متجاوزة لنزعاته الطائفية، وهذا كفيل بتحقيق مزيد من الرفاهية والرخاء. إن مسيرة إنساننا المعاصر تتطلب منه الوعي بجواهر تراثه وكنوزه، وثقافتنا المعاصرة بين ملتزم بالأصالة ومنفتح على حضارة الغرب، والمتنكر لتراثه هو في وضع المتنكّر لأبيه حينما تنكّر لماضيه.

إن الإسلامية والعربية صفتان لجسد واحد يتكاملان ولا يتواجهان فالإسلامية هي المضمون والقلب، والعربية هي البيان واللسان لهذا الجوهر، ومن المفروض على كل مسلم أن يلتزم بلغة القرآن كلسان وتعبير عن البيان.

العالم العربي المعاصر، هذا العالم الذي تجاوز تعداد سكانه مائتي مليون نسمة، ومتحكم في العديد من المضايق البحرية والحركة الجوية والبرية بين القارات، هو غني بثرواته الفلاحية والحيوانية والبحرية كما هو مساهم بإنتاجه الطاقوي بنسبة تدور حول ٤٠٪ من الإنتاج الكوني ويتمتع باحتياط عالمي في هذا المضمار يجعل الحضارة المعاصرة بمعطياتها المرتكزة على المحرك وفي أبعادها العلمية والتكنولوجية والصناعية تحرص على علاقتها المصيرية معه، كمناطق حيوية بالغة الأهمية، وبالتالي فإن النزعات الفكرية الإقليمية والإثنية والطائفية جديرة بعرض نتعرف من خلاله وباختصار على آلياتها، نشأة وتطورًا حتى الوضع المعاصر وكيف أن هذه الآليات تتطلب منا احتكامًا موضوعيًا لتخصصات حديثة ومستجدة توظف بهدف وضع هذه النزعات في واقعها كما كان وما هو كائن لا كما يجب أن يكون حيث إنها لعبت دورًا أساسيًا في دورات أمتنا سلالية، كانت أم ثقافية أم حضارية بين الإقلاع والانتكاس بين الإشراف والتراجع.. من هذه التخصصات نذكر الأنتروبولوجية الثقافية والاجتماعية والسوسيولوجيا، فضلاً عن علم التاريخ وفلسفته.

وحتى تعود هذه النزعات إلى منابعها سنلاحظ أن منها ما يجسد الفعل التاريخي أو مادية التاريخ كالنزعات الإثنية والإقليمية ومنها ما يجسد فكرانية التاريخ ومسيرته كالنزعات الطائفية وتتكيف هذه النزعات في الدورات التاريخية وتنعت بما يتمشى وطبيعة تطور الأحداث والوقائع في مختلف العصور.

ففي الدورات السلالية للعشائر والقبائل قبل ظهور الإسلام كانت نزعات «مادية التاريخ» عرقية - (اثنية) وديارية (إقليمية) تتمحور حول الكلأ والماء ومكانة القبيلة أو العشيرة ويزكيها الشاب، والشاعر وكانت النزعات الطائفية مقودة وليست قائدة، مسودة وليست السائدة وتخضع لتصانيف القبائل والعشائر أو الأوثان والأصنام، وجاء الإسلام لتظل النزعات الإثنية (العرقية) والنزعات الديارية (الإقليمية) فيما بعد في مواقعها لتتآلف وتتعارف تحت راية الإسلام بقيمه الخالدة

ومبادئه الشاملة ولم يعد الكلأ والماء وموقع القبيلة أو العشيرة متصدرين لما كان قبل الإسلام لتحديد المعايير بين النزعات وإنما المثل والقيم والمبادئ الخالدة تقوى وبر وإحسان... في إطار دور ثقافية سعت لتوحيد العرب في الجزيرة العربية أولا مرتكزة على ربط المعطيات الدنيوية بما هو أخلد وأبقى باسم وحدانية الله وتوحيد واتحاد النزعات المجسدة لمادية التاريخ في بوتقة أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وأهلت هذه الدورة الثقافية بين مكة والمدينة لإشراق إرهاصات المد نحو دورة ثالثة ومآلية، وهي الدورة الحضارية باعتبار أن الدورة الثقافية حينما تتجاوز حدود وطنها الأم وتتبناها أوطان أخرى خارج هذه الحدود تأخذ طابع الشمولية والصهر لمختلف نزعات مادية التاريخ (اثنية) عرقية أو دياري (إقليمية) وآنذاك يكون الإشراق لجسد الأمة المتجاوز لتدافع النزعات.. هذه الدورة الحضارية للعرب الإسلام هو الذي حقق لها الالتحام بفضل عقيدته الراسخة ومد لها الأرض بفضل فتوحاته التنويرية وعمم لها اللغة واللسان والبيان متجاوزًا النزعات تظهر وتختفي تتبنى تارة الكمون والسكون والإضمار في فترات من التاريخ، هي فترات الإشراق وكما تمارس تارة أخرى نشطية التمزيق والتدافع، بل والصراع في فترات، فترات منتكسة من التاريخ باسم الطائفية فتحيي بقية النزعات الكامنة والمضمرة في الأعماق لتلقي الأضواء على التمايز العرقي وتكسبه طابع التفوق أو الدونية حسب طبيعة الأحداث كما تلقي الأضواء على النزعات الدياري التي أصبحت مع أبشع رقعة الأمة (إقليمية) وتعمل النزعات الطائفية الممثلة للفكر التاريخي على إلباس هذه النزعات لباسًا حركيًا يحوّل كيان الأمة الشمولي إلى كيانات متهافتة تجتر رواسب العالق في أعماقها فتعود الأمة إلى وضع مرتد يلوك فتات الماضي ونفاياته.

نوضح العرض دون الخوض في تفاصيل متعددة تجد مكانًا لها في أبحاث علمية مطولة على مستوى علم التاريخ وفلسفته وسسلجته كما أشرنا سلفًا فنشير وباختصار إلى أن النزعات الطائفية شغلت حيزًا عريضًا من مسيرة أمتنا المتمحورة حول عالمنا العربي مركز الإقلاع والدفع وبقدر آليات هذه النزعات التي ترتكز على

فكرانية التاريخ والافتعال لإعطاء مشروعية وقالب من الصلاحية لرواسبها ومضمراتها جعلت إنساننا مع الفارق في تحديد المضمون السيكولوجي للشيزوفرانيا يعيش الانفصال والازدواجية في داخل العربي ذاته، عربي الاثنية والديار يفرز التعصب والانفعال، وقد ترتد به هذه الآليات لتلقي به في خضم الصراع المتعدد الوجوه، كما حمل لنا تاريخ المؤرخين الصور المفتعلة لهذا الصراع ولم يقف العربي بصراعاته الاثنية والديارية عند حد تقيئ ما رسب في أعماقه من حماسات الجاهلية، بل ومن خلال ردود الفعل تجاوزتها إلى التفاعل مع رواسب الشعوب الداخلة في الإسلام لتتسع دائرة التمزق لجسد الأمة وتتعدد المشارب والاتجاهات وتتكثف الميول الكامنة وتكتسي قوالب المذهبية والغنوسية والطائفية في أشكالها المتنوعة وحتى تاريخ المؤرخين نفسه لم يسلم من هذه الميول، هذه الاتجاهات هذا ما يدفعنا إلى حد القول بأننا وحتى إشعار آخر نعيش نسبيًا في حكونة، وقولنة، وروينة، تاريخ هؤلاء المؤرخين ولهذا آن الأوان أن نطرح علمية تاريخ أمتنا وثروات بشرها المسلمين محتكمين إلى الفعل التاريخي في التعرف على النزعات الإثنية والإقليمية.

ونكتفي بفكر التاريخ بعد تنقيته وغربلته في الإحاطة بالنزعات الطائفية المفتعلة لتغطية الرواسب والمضمرات كما نطرح فلسفة التاريخ أيضًا دون تهيب من هذه المعايير المتخصصة والمستحدثة التي برهنت على جديتها بما لها من قدرات تنهيج وإمكانات هائلة في طرق البحث ووسائله... نحن في أشد الحاجة إلى علمية التاريخ وفلسفته وسسلجته لإعطاء مزيد من الإشراق لمسيرة أمتنا التاريخية في مختلف العصور «**المصادرة... التلوث، الضياع**» ثلاثة محاور توجب إعادة النظر في تقنين هذه المسيرة [1].

هذه دعوة نطرحها موضوعيًا لأن تاريخ المؤرخين خضع في تقنينه، أولا: للمصادرة التاريخية، ثانيا: التلوث التاريخي، ثالثا: الضياع التاريخي، بمعنى أن التاريخ الإسلامي عرف ما يستوجب إعادة كتابته من جديد.

بالنسبة للمصادرة التاريخية، هناك كثير من الوقائع والأحداث التي صودرت في عصرها، ولم يسمح لها بالمرور إلى الفترات التالية لأنها أحداث ووقائع لا يسمح بتداولها، لذا كانت المصادرة.

أما التلوث التاريخي، فهناك أحداث ووقائع حدثت وتباين المؤرخون في تقنينها، فهذا مؤرخ يميل إلى التفاصيل والإطناب والإشهار بعصره لأنه تمتع فيه، وكان مقرّبًا لأهل الذكر، وعلى العكس من ذلك هناك مؤرخ عانى في عصره وعاش مقهورًا، وبالتالي عكس هذه المعاناة على الأحداث فإذا بنا نراها من خلال معاناته، وهناك مؤرخ ثالث لا ينتمي لهذا ولا ذاك فيعطي الحدث نوعًا من الاختزال.

أما الضياع التاريخي، فمن المعروف أن هناك جزءاً كبيرًا من التاريخ الإسلامي قد ضاعت وثائقه أثناء الحروب والغزوات والصراعات أو تلفت أو أتلفت، أو أنها بكل بساطة لم تكتشف بعد.

لذا لابد أن نضع في حسابنا هذه المعايير عند طرح علمية التاريخ، لتراث المسلمين. ويتم ذلك عن طريق غربلة التاريخ مما علق به من أهواء، وتلوث ومصادرات، وبالتالي يكون عالم التاريخ هو صاحب الاحتكام للفعل التاريخي بعكس المؤرخ صاحب الفكر التاريخي الذي يهتم بفكرانية التاريخ وعالم التاريخ حينما يحتكم إلى الفعل التاريخي، إنما يحتكم للوقائع والأحداث، وبالتالي يقوم بعملية بناء موازٍ للفكر التاريخي ويكون بناء يتميز بالصرامة والجدية.

علمية التاريخ إذا نوع من التخصصات مهمته غربلة وتنقية تاريخ المؤرخين ارتكازًا على الفعل التاريخي واحتكامًا إلى العوامل الرئيسية المؤثرة في الوقائع والأحداث، أي العامل الاقتصادي والبنية الاقتصادية والعامل الديني والتربوي، والنفسي والجغرافي والبيئي والديموغرافي...

وعالم التاريخ هو صاحب الاحتكام الملموس الذي يكون رأيه مطروحًا على جانب من النقاء والغربلة، وهو لا يقوم أبدًا بتقديم تفسير لأحداث التاريخ وتعليلها، وإنما تترك هذه المهمة لفيلسوف التاريخ، فالذي يعني عالم التاريخ هو مدى صحة

وثبات التاريخ، هذا عن علمية التاريخ، فماذا عن فلسفة التاريخ، وسوسيولوجية التاريخ؟ فلسفة التاريخ مهمتها تعليل الأحداث والوقائع التاريخية، وهي فلسفة أزمات التاريخ، بمعنى أن التاريخ عندما يكون انسياقيًا وانسجاميًا لا يحتاج لمن يفلسفه، ولكن عندما يتأزم التاريخ ويفتقد إيقاعه وتبدأ المعارج والمنحنيات، مثل سقوط أمم وانتهاء حضارات وتحولات كبرى، يكون التاريخ بحاجة لمن يفلسفه لأن فيلسوف التاريخ هو وحده القادر على أن يقول لنا لماذا حدث هذا ؟

فيلسوف التاريخ دوره محدد بالتالي فهو كما أشرنا سلفا صاحب التعليل للمعارج والمنحنيات والأزمات التاريخية حين يفقد التاريخ تلقائية تطوره.

أما سوسيولوجيا التاريخ فهي تخصص قائم بذاته لها إطار محدّد أيضًا، ليست إعادة فلسفة التاريخ أو إعادة علمية التاريخ كما يعتقد البعض، سوسيولوجية التاريخ تتدخل حينما تتداخل التخصصات التاريخية بين المؤرخ، وعالم التاريخ وفيلسوف التاريخ، وهنا تقوم سوسيولوجية التاريخ بربط الوقائع والأحداث التاريخية بالبنيات الاجتماعية، وهي هنا تعمل على «طقسنة» التاريخ أي تهوية التاريخ، فهي «تطقيس» التاريخ أي لا تجعله منفصلاً ومندفعًا في بعد واحد. فسوسيولوجية التاريخ توسع من دائرة المناقشة وتدخل عوامل لم تك مطروحة على مستوى مؤرخ أو عالم أو فيلسوف للتاريخ، وهي عوامل ربط البنيات الاجتماعية والطبقية لفهم التاريخ وتفهمه، مثلا: الأندلس نعرف مراحل تاريخه ولاة وإمارة وخلافة وملوك طوائف ثم ضياعه في النهاية... هنا يمكن لسوسيولوجية التاريخ أن تبرز الجانب الاجتماعي والبنية الاجتماعية لمختلف فئاته العشائرية والقبلية ودورها في بناء الحدث التاريخي.

إننا نتمنى ـ ولدينا العديد من المنظمات المتخصصة في الوطن العربي أن تتكاتف الأيدي لنضع علمية تاريخ هذه الأمة، يتكاتف المؤرخون والمتخصصون الأكفاء على بلورته في إطار مؤسساتي، فهذا ليس بالعمل الفردي يوضع أو يصاغ في أطروحة ما لبحث أو دراسة عن حدث أو شخصية أو موقعة أو مدرسة فكرية أو عصر، وإنما عملية جرد صارم للفعل التاريخي (مادية التاريخ) وماهيته، تقوم به منظمة أو مؤسسة قد تلجأ للعديد من الباحثين والمتخصصين لإخراج هذا العمل ولو

بشكل مرحلي. وفي هذا المضمار لا نستبعد ابن خلدون حينما نكون بصدد علمية التاريخ وفلسفته، فإن كان هيرودوث يعتبر مجازًا أب المؤرخين، فابن خلدون هو دون شك الأب لعلماء التاريخ وفلاسفته، وكم كنا نتمنى «ألا يظل كبيضة الديك» كما يقال في الاستثناء، يحفظ ولا يقاس عليه، وإنما يجسد تيارًا، يتمتع بالاستمرار من بعده على يد تلاميذه ومريديه، يبلورون المد الخلدوني بعد ابن خلدون وإن كان يذكر بعد ابن خلدون من حاولوا أن يهتموا بتراثه ويسهموا في استمرارية الخلدونية ولكنها أشبه بقبسات لم تترك أثرًا جذريًا يعبر القرون التالية ومن بعده يكمل الجيل المعاصر المسيرة والمسار.

المتغيرات إذن بالنسبة لإنساننا المسلم في هذا العصر لا يمكن بحال من الأحوال أن تحد من تطلعاته المستقبلية شريطة أن تعمل لصالح ثوابته وشمولية أمته متجاوزة لنزعاته الطائفية الترسيبية، بل إنه مطالب بالتعامل مع المتغيرات واستئناسها بما في ذلك ما تمليه حضارة الغرب السائدة والمسيطرة بأسسها العلمية ومعرفتها التكنولوجية ووسائلها الصناعية، فضلاً عما قدمته في إطار تشريح الإنسان سواء في أغواره شعوريًا ولا شعوريًا (السيكولوجيا أو علم النفس) أو تفهم الإنسان في إطاره العلائقي وفهمه كمؤثر ومتأثر ببيئته (السوسيولوجيا أو علم الاجتماع) أو في استيعاب نتاجه المادي والمعنوي، تقاليد وعادات وأعراف بإطاره الثقافي كانعكاس لوجدان الشعوب وتعبير صادق له (الإثروبولوجيا الاجتماعية أو الثقافية) وغير ذلك من التخصصات التي توظف كي ترقى بالإنسان ومجتمعه وتتقدم به في إطار تنموي معطاء شمولي لا طائفي كفيل بتحقيق مزيد من الرفاهية والرخاء له والإشراق بذهنه وقدراته الفكرية شريطة أن يسخر كل هذا لما فيه إسعاد البشرية وتأصيل الإنسانية تحت راية الله الذي استخلف الإنسان في الأرض [٢].

تطلعات إنساننا العربي المسلم المعتز بتراثه هي تطلعات موضوعية علينا أن نبذرها فيه منذ طفولته عبر نسق بيداغوجي موحد ولو كان اختياريًا في البداية لا إجباريا، هذا النسق الذي يؤصل فيه الانتماء للركائز السابقة ليؤهله لكي يكون رجل الغد القادر على التدافع بين الأمم.

رجل الغد القادر على التدافع بين الأمم.

إن مسيرة إنساننا المعاصر تتطلب منه الوعي بجواهر تراثه وكنوزه ومنها وعلى ضوئها يقلع ليكمل المسيرة ملتزمًا بتطلعات سمتها الوضوح والوعي والتعبئة، عليه أن يكون واضحًا فيما يتطلع إليه، فهو لا يتطلع ليسود على الكون مستغلا لأسلحة الدمار والرعب، موظّفًا قدراته لتخريب الكون، لا ولا يمشي تشييده، وإنما يتطلع لاستعادة إنسانية الإنسان بما يتحلى من توازن ووسطية وقناعة إيمانية، فهو هذا الذي يغضّ من صوته ولا يمشي في الأرض مرحًا، ولا يجعل يده مغلولة إلى عنقه ولا يبسطها كل البسط، هو هذا الذي يفكر في دنياه كأنه يعيش أبدًا ويفكر في آخرته كأنه يموت غدًا. من هنا وعلى ضوء هذه الأسس كان التبشير بوسطيته كإنقاذ للبشرية وقدوة لها، لا يسود ولا يصبح مسوداً، كما أنه مطالب أن يكون واعيًا بواقع عصره وتناقضاته على أنه عصر غلب فيه الاستيلاب بالاستهلاك وسيطر الإشباع إلى حد النهم دونما قناعة أو اعتدال، وعيه بهذا السلوك وغلاته يقيه شر التهميش والتحول إلى مستنقعات يلقى فيها بفائض نفايات المستهلكين الذين أضاعوا العمر مستهلك ومستهلك، تحولوا إلى خدام للأشياء بدلاً من أن تكون الأشياء في خدمتهم، هو إنساننا القادم بتطلعاته المستقبلية التي لا تطمح إلى امتلاك أدوات الدمار وإنما تسعى لاستعادة الإنسان، ومن أجل هذا هي تتخذ كأرضية لتعبئتها تحاشي الغلو والمغالاة وتحاشي اللغو والتنطع [٣].

إن الجماعات البشرية في دورتها التأسيسية، قبائل وعشائر مرجعها الإحالي يتمحور حول السلالة بمفهومها العرقي (اثنية) أو (الدياري) لدى العرب قبل الإسلام وحتى بعده (إقليمية)، وإن بعض العشائر الدونية كانت تمارس الانتساب إلى سلالات طوطمية، وحينما نجسد هذه الدورات السلالية في إقلاع إنساننا العربي قبل الإسلام سوف نتكشف على دوراته السلالية ثنائياً.

فهو إما إنسان العشيرة العرقية، أو العشيرة البيئية نسبة إلى العرق أو البيئة، ومن الخطأ أن يوصف العربي بأنه مارس انتماءه السلالي طوطمياً، كما زعم بعض الباحثين في هذه القضايا، انتروبولوجيا على سبيل المثال لا الحصر (روبير تسن

سميث)، وهكذا كانت الدورات السلالية عشية ظهور الإسلام في مجتمعنا عرقية، ونعني بها عشيرة الأقربين، علاقة الدم، أو بيئة عشيرة الديار يتغنى بهما الشعراء، كما يسهر النسابة على تأصيلهما وإعطائهما الحيثيات.

فالسلالة إذن هي غاية الدورة من أجلها يدافع أبناء العشيرة، ولها يثأرون، وبها يتفاخرون بنعراتهم وحماستهم التي وصفها الإسلام بحماسات الجاهلية، وذلك حينما أرسى الدورة الثقافية الوريثية للدورات السلالية بقيمها المشتركة ومثلها العليا، والتي من أجلها وبها ولها يعيش الإنسان، فإن كان للعربي من دورة ثقافية متناغمة وإيقاعية، فمردّها الإسلام الذي تجاوز بإنسان السلالة تعصبه لسلالته، مخفّفًا أو مذيبًا لنعراته، مخرجًا له من انغلاقه العشائري العربي أو البيئي ليتفتح على ذات الآخرين مبرزًا لأروع ما في الإنسانية من مثل تنتهي بالإخاء في الله، فالمسلم بذلك يجسّد نموذجًا متميّزًا وسطيًا شهيدًا على الآخرين، به يقتدي في إيمانه المتكامل وسلوكه السوي.

واستطاع الإسلام في عهد النبوة الخالدة أن يعطي لدورته الثقافية رصيدًا يؤمن لنا الاستمرارية لنتطلع مع الفتوحات بعد محك حروب الردة إلى دورة حضارية أنارت طريق البشرية في عصورها الوسيطة المظلمة وخلال الدورة الحضارية لأمة الإسلام. وكانت وحدة الثقافة التي تعطي من الفاعلية والصلاحية ما يؤمن للركائز الأخرى للأمة صمودها، رغم ما وجه إليها من طعنات وما أصيبت به من جروح، ونعني بهذه الركائز: العقيدة التي وحدت الوجدان بالآذان، ثانيا الأرض المشتركة عبر افريقيا وآسيا وما حولهما، وركيزة التاريخ المتكامل الذي يعتز به المشرقي في المغرب، والمغربي في المشرق. كما يعتز به الإفريقي المسلم اعتزاز الآسيوي المسلم... هذه الركائز دعمت عبر القرون المختلفة بوحدة الثقافة مجسدة في لغة القرآن، كضمان للاستمرارية بين المد والجزر بين الدفع والانتكاس.

وها نحن اليوم نتساءل حول ثقافتنا المعاصرة، وكيفية استعادة وحدة الانتماء لأمة لا تقف عند حد توحيد بيانها ولسانها استجابة لوحدة عقيدتها ووجدانها

وأرضها وإنما تسعى إلى مد شمولية الالتحام تحت راية التعاون والوفاق متجاوزة لنزعات التفكيك الطائفي والتمزيق الذي أملته الأهواء وزكته المشارب والطموحات اللاموضوعية العمياء التي لا ترى من المستقبل إلا موقع أقدام الحاضر ولهثه وانفعاله بدلاً من المستقبل الممتد المعطاء تحت شعار التجانس والتكامل لأمة يمكنها أن تتخذ مكانًا لها بين الكيانات الكبرى في هذا الكون.

ثقافتنا المعاصرة بين ملتزم بالأصالة وبين متفتح على حضارة الغرب السائدة واعيًا بذاته أو متنكّرًا لها مستلبًا بزخرفة هذه الحضارة وبريقها، هذا المتنكر لتراثه هو في الوضع المتنكر لأبيه حينما تنكر لماضيه، وقد يصل به هذا التنكر إلى مستوى اللقيط الذي لا مرجعية له ولا محالة أيا كان المبرر وكيفما أعطى من الحيثيات المفتعلة التي تصل به في النهاية عبر شعوره المشلول إلى تحويل حقائقه التاريخية إلى أساطير في الوقت الذي يعمل فيه المواجه له والمغتصب لأرضه على أن يحول أساطيره إلى حقائق.

ومهما يكن، فالمتفتح على حضارة الغرب في حضور ذاته دون مغالاة في الانبهار أو المحاكاة أو التقليد هو في وضع لا يمثل بالنسبة لثقافتنا المعاصرة المعتزة بأصالتها الإسلامية خطرًا يعادل ما يلحقه المتنكر لأرضيته ولكن يبقى المعيار المانع الجامع والذي يحتكم إليه في تقنين ما هو صالح للذات وما هو مشوه لها، هذه المعيارية مازالت تتأثر بشتات المسميات مما خلق جواً من المتشابهات المذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، حضارة الغرب سائدة بإنجازاتها وإمكاناتها المتعددة علميًا وتكنولوجيًا وصناعيًا، وعلينا حيثما نتحاور معها أن نعي بثقل ضغوطها وجاذبية معطياتها.

وهكذا حيثما نتعرض لثقافتنا المعاصرة علينا أن نحدد الأبعاد المختلفة والسائدة في ساحة فكرنا المعاصر، وقد أجملنا تيارين: تيار التنكر وتيار التفتح، هذا المتنكر لذاته لحساب حضارة الغرب، وذاك الواعي بذاته وعيه بحضارة الغرب، ويأتي هذا التيار الثالث الذي تبنى التأصيل والدفاع عن السلفية وبدوره وأمام طبيعة العصر ومتطلباته تقنون في قناتين: قناة فضلت أن تكون منها وإليها، وهنا نطرح قضية

الحضور في العصر، ونلمس الواقع المعاش فيه، وقناة دافعت عن التأصيل والسلفية، وفي حضور العصر ملتحمة بالواقع كما هو في انتظار ما يجب أن يكون عليه.

إن كانت الإسلامية كانتماء تجمع عناصر القناتين، ولكن هذا الانتماء الذي يفخر به كل مسلم علينا أن نعطي له طابعًا حيويًا ونشيطًا يؤمن لـ الإشراق والإشعاع. ويقيه شرور الهزات وما يفتعل له من حواجز باسم مسميات مصطنعة ينفخ فيها البعض ويشخصن همومه، بل ورواسبه، ويضارب عليها البعض الآخر في سوق السمسرة الفكرية عله يحد أو يضعف الزحف للإسلام المستنير.

ساحتنا الفكرية إذن غاصة بمسميات مفتعلة مصداقًا لقول الحق: وفي كل العصور وعلى كل المستويات «إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن تتبعون إلا الظن».

سنكتفي بهذه المسميات بمثال ضارب عليه البعض معتقدًا أو زاعمًا أنه يمكن أن يحقق ما عجز أعداء هذه الأمة عن تحقيقه، ونعني بذلك شل ذهنية الأمة ممثلة في نخبتها واستنزاف قدرتها في مواجهة لا تغني ولا تسمن من جوع، هذا المسمى الذي هو حق أريد به باطل لنعطي ثقافتنا بالعربية كبديل للإسلامية أو معطوف عليها، وغاب عن هؤلاء السماسرة أن الإسلامية والعربية صفتان لجسد واحد يتكاملان ولا يتواجهان، فالإسلامية هي المضمون والجوهر والمحتوى والقلب، والعربية هي البيان واللسان لهذا المحتوى وهذا الجوهر، فكل ما هو إسلامي أحب من أحب وكره من كره بالضرورة والالتزام عربي اللسان والبيان، لو أننا اقتدينا بما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «ليست العربية لأحدكم من أب أو أم وإنما هي اللسان».

وهكذا من المفروض على كل مسلم أن يلتزم بلغة القرآن كلسان وتعبير عن البيان، فهي لم تعد عربية القرشيين ولهجتهم، وإنما لغة مدّها الإسلام كما مدّ الأرض ومدّ التاريخ والتراث، ومن ثم فلا يمكن تصور مسلم قلبًا وقالبًا دون أن يكون بغير لغة القرآن، يتكلم ليعبّر بها عن وجدانه الإيماني في كل صلاة ومن خلال كل

دعاء.

وهنا نتساءل تخفيفًا من حدة وكثافة ضباب الشتات للمسميات وماذا عن العربي؟ إنه يمكن تصوره بلا إسلام. موضوعيًا على مستوى الأقليات التي تعيش وتتعايش في رحاب الناطقين بالعربية ببلاد الإسلام، تتعايش على الأرض التي مدّها الإسلام وصبغها بتاريخه وغصها بآذنه، فضلاً عن مدّه للغة التي هي في الواقع موظفة لخدمة الإسلام ولحسابه لا ليكون الإسلام في خدمتها، وتوظف على حسابه، نكررها وفي كل مناسبة لسانه وبيانه عربي، ولا يمكن تصور عقل بلا بيان وجسد بلا لسان، كما لا يمكن تصور بيان بلا عقل ولا جوهر ولسان معلق بلا جسد....

لقد طرحت علينا تناقضات العصر أقاويل وأقاويل يروجّها البعض هنا وهناك كمسميات مغلوطة أو تزييف أو غش مبيت لحاجة في نفس يعقوب، يحاول أن يدسها ومن خلالها يلقي بسمومه لتكثيف معاناة هذه الأمة في فكرها استكمالاً لمعاناتها في وجودها وحياتها اليومية.

إن ثقافتنا العربية المعاصرة من الإسلام وإليه، منفتحة في طريقها على عصرها وعصور الآخرين، غير وجلة أو متهيبة، تفخر بانتمائها افتخارها بإنسانها المسلم الذي جسد صفحة رائعة من صفحات تاريخ الإنسانية حينما أشرق بمبادئه العليا، محاورًا، متسامحًا، ناشرًا الإخاء في الله، متعاليًا عن الضغائن والأحقاد وعصبية الانتماء ونعراته المسممة، ثقافتنا الإسلامية المعاصرة تتخذ من عصر النبوة أو عليها أن تتخذ منه نبراسًا وقدوة باعتباره العصر المعياري الذي انطلق بفئة قليلة من دار الأرقم لتتحول بزحفها من سلف إلى خلف، وحتى هذا العصر لتشكل ما يتجاوز المليار من المكبرين بالأذان وبإعلاء كلمة الحق وراية الله، إنه جسد لا يعاني عضويًا، ولكن يعاني من سوء توظيف لفئات من نخبته ظلت بحسن نية أو ظلت بسوء نية تبحث بين مختلفات الشتات وعبر أنقاض المسميات المفتعلة عن شخصية محبطة غير قادرة على احتواء ذاتها، ومن باب أولى قادرة على التعامل مع الآخرين، إن هؤلاء المفكرين يجزئون شخصية العروبة، وغاب عنهم الفارق بين العروبة

الصادقة المشعة، عروبة الرسالة والحضارة، عروبة المد والعطاء، وبين عروبة معربنة، معصبنة، تريد أن ترتد بعروبة الأشراق وعروبة الرسالة إلى حماسة الجاهلية بنعراتها وفعلها وردود فعلها.

فالقضية ليست بنت اليوم ولكن اكتوينا بشظاياها تاريخيًا على يد عصبة من الأدعياء، زّيفوا الأموية في العروبية، فأحيوا حماسة الجاهلية، كما أحيوا شعوبية لم تجد لها متنّفسًا بعد أن احتوى الإسلام رواسبها، إلا أن تفتعل ضربًا من التشيع ليس فيه ممن تشيّعوا لرسول الله حبًا وتعلّقًا بآل بيته إلا التسمية، فكما أن هناك عروبة وعروبة، هناك شيعة وتشيع، وهناك المسلم والمتأسلم، وها نحن اليوم كالأمس بين الفعل وردوده بعد أن عبرنا مع العثمانيين مواقعهم من العرب وبعد استبدال المواقع والأدوار، فلعبوا دورًا كفعل في بعث ردود الفعل وإحيائها وتزكية نيرانها وما صاحبها من تهلهل واستغلال لضعفها ومرضها في شكل تزكية لثغرات عانت من سيادة العثماني، بل وفي بعض الأحيان قمعه لإنسان الإسلام بقدر قمعه له في اللغة والبيان وكل هذا باسم الإسلام، وقد كان طبيعيًا أن يصاحب هذا القمع كرد فعل ومقاومة البحث عن الهوية، هوية إنساننا المتجانس قلبًا وقالبًا، مضمونًا وبيانًا ولسانًا. فتداخلت عناصر مغرضة ارتأت أن الوقت قد حان لتوسع من المواجهة مع العثمانيين لتجعل منها مواجهة مع الإسلاميين، وأن البديل هو النعرة العربية، وغذت بعض الأقليات هذا الاتجاه التي وجدت فيه متنفّسًا لها بعد التزين بشتات المسميات، وانعكس ذلك على الحياة الفكرية ودعاة الإصلاح والانعتاق أو أدعياء البديل بين ملتحم مع ما تبقى من الخلافات العثمانية محاولاً إيقاظ الجسد المريض وبين أدعياء البديل من الباحثين عن مقومات ذاتية خارج الإسلامية ولم لا على حسابها، وهنا بدأ موكب الافتعال وتمطيط المقومات ولوي عنق التاريخ، حتى ابن خلدون لم ينج من هذه العناصر، كما هو معروف، فكيلت له التهم، وجسدت فيه الخطيئة لدى البعض، وجر إلى قفص المحاكمة من رواد نعرات مفتعلة قلصت من مصداقية القومية العربية المشعة التي هي من الإسلام وإليه وتحت رايته ليست منه بالبديل. رحم الله ابن خلدون وسامح الله من ألحقوا به تهم العداء، فابن خلدون

وبوعي المؤرخ والعالم والفيلسوف ميز بين عربي النعرة والعصبية والبداوة وعربي الإمامة والبيان واللسان، عربي القرآن قدوة بمحمد العربي، رسول البشرية وخاتم الأنبياء القرشي الأمين [٤].

وحتى لا يتحوّل المنظور الشمولي للأمة في عصر الكيانات الكبرى إلى نزعات تنخر في جسدها باسم طائفيات مفتعلة باسم فكرانية التاريخ تغذيها نفايات النعرات والرواسب والمضمرات لتقويض صرح هذه الأمة وتتركها نهبًا للآخرين. وعليه فالدعوة إلى المتجانس والالتحام والتعاون والتآلف والتعارف هي دعوة إلى استعادة إنساننا المتكامل توطئة لاستعادة كيان الأمة المرتكزة عليه.

وإلا كيف يمكن توحيد تحقيق وحدة أمة لم يوحد إنسانها أساسًا في عصر تتفاخر فيه الأمم بكياناتها الكبرى الموحدة بإنسان توليفي ليس له من ركيزة إلا الأرض أو المصالح، فإن كانت الدول العظمى حاليا تفخر بكياناتها الكبرى التي لا تعتمد من الركائز إلا على ركيزة واحدة أو ركيزتى الأرض واللغة قهرًا سواء في ذلك الاتحاد السوفياتي أو الولايات المتحدة الأمريكية، فكلاهما فرض وحدة الثقافة فرضًا في لغة مشتركة لشعوب متنوعة أو قوميات مختلفة، وأمتنا ولله الحمد لا تتمتع فقط بركيزة أو ركيزتين قهرًا، وإنما ركائز ثلاثة تبنتها الأمة في مسيرتها بقناعة وطواعية ورضى، فهي القانعة بإيمانها الموحد لوجدانها، المعتزة بأرضها وتاريخها تحت راية الإسلام، فهو الذي كما نكرر دائمًا مدّ الأرض كما مدّ التاريخ وركّز وحدة الوجدان، وتبقى في النهاية الركيزة الرابعة التي ما غابت أبدًا عن سماء هذه الأمة إلا حينما حفلت بالمضاربين وناشري ضباب المسميات وسماسرة الشعارات الملفقة يتاجرون في كل شيء، يبيعون ويشترون في كل الأسواق يرتدون لكل موسم رداءه يظهرون في المناسبات ويختفون حسب الظروف والملابسات، لقد آن الأوان أن تطرح قضية لغة القرآن كرمز وعنوان لوحدة ثقافتنا المعاصرة دون أن تغلق الأبواب أمام وسائل التوصيل والتواصل مع الآخرين باللغات السائدة في هذا العصر، ولكن نميز بين الوسيلة والغاية. فغاية الإنسان المسلم الحاضر والقادم في استعادة وحدته الثقافية بلغة القرآن بقدر استعادته لمكانته في القرن العشرين وفي القرون القادمة

بفضل حضوره في عصره لا غيبته واحتوائه لإنجازاته واستيعابه للغاية السائدة دون أن يتم ذلك على حساب تنكره لذاتيته وعلة وجوده. ونعني بذلك انتماءه بوسطيتها ووحدتها كانتماء كي تنطلق مع الأجيال القادمة لتحقيق بقية أبجدية البناء والخلق والإبداع (٥).

وكخلاصة: النزعات الإثنية والنزعات الإقليمية في العالم العربي المعاصر هي استمرارية للانتسابات العرقية والتجمعات الديارية منذ المنابع لدى الإنسان العربي قبيل ظهور الإسلام تجسد الفعل التاريخي (مادية التاريخ للأمة) عبر مختلف عصورنا متلحفة في كل فترة بانعكاسات الواقع، ولكن رغم تعددها متكاملة، متناغمة، متجانسة ملتحمة في مراحل الإشراق مبلورة للدورة الحضارية السائدة مقلصة في بعض الحالات مذيبة للكمون الطائفي مرتدة به إلى حجوره، وحينما ينتفخ المدّ الطائفي ويفتعل مشروعية لوجوده تعاني الأمة من الانتكاس وتلتوي متراجعة وتزيى الطائفية المتسلطة بزيها النزعات الإثنية والإقليمية محصنة لمسطحاتها بتزكية الانشقاق والتفتت والتطاحن مدعمة له بكل الحيثيات الانفعالية، مرتدة بالدورة الحضارية للأمة لتعود بها متهالكة في دورات ثقافية متنوعة بلا هوية أو فاعلية، توطئة للغوص بها منتكسة، باحثة عن فتات الدورات السلالية ونفاياتها متنكرة مقنعة في ثياب من العصرنة المزيفة، متحلية بنعوت براقة ما هي إلا مسميات ما أنزل الله بها من سلطان.

الهوامش والمراجع

(١) لمزيد من التفصيل راجع رشدي فكار في عشرين مجلدا مختارة من انتاجه، القاهرة : دار البلاغ بجوار ضريح سعد سنة ١٩٩٣، المجلد السابع عشر، مداخلات إسلامية حول قضايا الانسان والمجتمع، ص ٧٩ وما يليها.

(٢) المرجع السابق، ص٨٣ ـ ٨٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٤) نفس المرجع ص٩١ وما يليها.

(٥) نفس المرجع ص١٠١ وما يليها.

* * *

التعقيب: د. حامد عبدالله ـ جامعة الكويت

يناقش هذا البحث موضوعًا في غاية الأهمية ويمس واقع حياتنا المعاصرة ألا وهو موضوع النزعات التي يعاني منها العالم العربي المعاصر ومنها ما هو إقليمي أو إثني أو طائفي، ومعالجة الدكتور لهذا الموضوع بمثابة معالجة الطبيب الحاذق لمرض استشرى في جسد المريض فيريد أن يعالجه. فالدكتور رشدي قد وضع يده على أصل وصلب المشاكل في عالمنا العربي المعاصر وما تسببه هذه النزعات من اختلافات وتوجهات لا تساهم في رقي وتطور حياتها. ولكن يلاحظ هنا أن طرح الأستاذ الدكتور لهذا الموضوع هو نفث للهموم أكثر منه بحثًا علميًا، فيبدو أن الباحث قد أحس عمق هذه القضية وإفرازاتها السلبية على واقع ومستقبل أمتنا العربية المعاصرة فكان أن طرح همومه ونظرته لهذا الموضوع على سطور الوريقات التي بين أيدينا على أمل أن تنال صرخته أسماع الباحثين والمفكرين المهتمين بشؤون الأمة كي يتدارسوها ويشبعوها طرحًا علميًا من أجل وضع حلول لهذه المشاكل.

يطرح الباحث مجموعة من القضايا برؤية علمية ثاقبة تنبىء عن أصالة فكرية، فقد دعا الباحث إلى النظر إلى التاريخ نظرة جديدة تأخذ في عين الاعتبار علمية التاريخ وفلسفته وسسلجته.

ومن يراجع التاريخ يستدرك الحاجة لمثل هذا الطرح خصوصا وأن التاريخ العربي والإسلامي كتب في كثير من الأحيان بصورة تناسب السلطة السياسية الموجودة آنذاك، فلم تصلنا حوادث التاريخ بصورتها الواقعية. ولكن يلاحظ أن د. رشدي فكار لم يقدم لنا آلية عملية من أجل أداء هذا العمل الجبار ومن أجل ضمان عدم تكرار أخطاء الماضي. ولا ننسى أيضًا أن الكثير من الوقائع المعاصرة ينالها الكثير من التزييف والتحوير ـ كما هو حاصل في أحداث الغزو العراقي الآثم ـ على دولة الكويت وهذا كله يحتاج بالتالي إلى أجهزة تجمع عددًا من المؤرخين المشهورين بحيادهم وموضوعيتهم لكي يسجلوا التاريخ ويعيدوا كتابته بصدق وأمانة.

بالإضافة إلى ذلك فنحن نحتاج إلى رؤية إسلامية لفلسفة التاريخ ومعرفة سننه ومقارنة ذلك بما كتبه بعض الكتاب الغربيين مثل (ول كنيدي) في كتابه «قيام وسقوط القوى العظمى». ويمكن أن تكون نقطة الانطلاق هنا ما كتبه المفكر الإسلامي الشهير محمد باقر الصدر في مجموعة من كتبه حول سنن التاريخ.

تطرق البحث أيضا إلى العوامل التي توحد بين فصائل الأمة الإسلامية وهي:

العقيدة الإسلامية ـ الأرض المشتركة ـ التاريخ المتكامل ـ اللغة العربية «لغة القرآن». ولكن المهم هنا هو كيف يمكن استخدام هذه الركائز لتحقيق الوحدة الإسلامية المنشودة في واقعنا المعاصر خصوصًا في ظل وجود دول على أسس قومية وعلمانية ودينية وهناك العديد من المشاكل فيما بينها. وكذلك فمن الضروري البحث عن وسائل جديدة لتحقيق التكامل ـ إن لم يكن الوحدة ـ بين الدول العربية أو حتى الإسلامية مثل التكامل الاقتصادي والسياسي كما هو حاصل بين الدول الأوروبية.

وضع الباحث يده على قضية يمكن اعتبارها لب المشاكل وأصلها وهي النزعة الطائفية وما تلعبه من دور في تفريق الصف وشق وحدة الرأي والكلمة، ولكن الباحث لم يحدد لنا المقصود بالطائفية، هل هي الانتماء إلى طائفة معينة؟ أو التعصب لهذه الطائفية على حساب الطائفة الأخرى؟ لقد كان من الضروري بحث هذه القضايا على أسس علمية منهجية.

المشكلة هنا أن الطائفية ينظر لها بمنظار أن يكون العالم الإسلامي كله طائفة واحدة وهو أمر غير واقعي ولا يمكن أن يتحقق، لذا نشأ عندنا «فقه التكفير» أي من لم يكن معنا فهو ضدنا، وقامت حروب في تاريخنا الإسلامي بين أتباع المذاهب والمدارس الفقهية الإسلامية إذًا يجب النظر إلى النزعة الطائفية نظرة جديدة تأخذ في عين الاعتبار الحوار المتبادل بين المذاهب والطوائف الإسلامية من أجل التوصل

إلى قواسم وخطوط عمل مشتركة، وأن يستوعب بعضنا بعضًا وأن نبتعد عن مواطن الخلاف والنزاع، وحينها يمكن أن تلعب المدارس الفكرية المختلفة دورًا في الرقي الحضاري لأمتنا العربية والإسلامية.

من القضايا الأخرى التي أعتقد أن البحث قد طرحها على عجلة ولم تأخذ حقها من النقاش والتوضيح، هي جدلية العلاقة بين الإسلام والعروبة بين منكر لدور العروبة ومستبعد أو مهمش لدور الإسلام، لذا ظلت هذه الإشكالية موجودة وكان من الواجب على الباحث دراستها بشكل معمق.

يلاحظ أيضًا على الباحث استخدامه للكثير من الكلمات والمصطلحات الأجنبية وتعريبها بشكلها اللفظي وكان من الأفضل أن يتم استخدام البديل العربي لها. فنلاحظ استخدام الباحث لكلمات مثل «سسلجة» و«سوسيولوجيا التاريخ» و«نسق بيداغوجي»، وكذلك فقد استخدم بعض الكلمات والاشتقاقات الغريبة التي يصعب فهمها على القارئ مثل «فكرانية التاريخ» وكلمات «حكونة» و«قولنة» و«روينة».

أخيرًا وليس آخرًا فالبحث عبارة عن طرح لهموم مفكر عربي إسلامي حول قضايا تهم كل شخص منا وهو عبارة عن دعوة لتدارس هذه القضايا عن طريق تبادل النقاش والحوار كي نصل إلى سبل الفكاك من هذه النزعات التي ما فتئت تعصف بواقع أمتنا العربية والإسلامية.

* * *

حوليات كلية الآداب

تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

دورية علمية محكمة تتضمن مجموعة من الرسائل وتعنى بنشر الموضوعات التي تدخل في مجالات اهتمام الأقسام العلمية لكلية الآداب

- تقبل الأبحاث باللغتين العربية والإنجليزية شرط أن لا يقل حجم البحث عن (٤٠) صفحة مطبوعة من ثلاث نسخ.
- لا يقتصر النشر في الحوليات على أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب فقط بل لغيرهم من المعاهد والجامعات الأخرى.
- يرفق بكل بحث ملخصًا له باللغة العربية وآخر بالإنجليزية لا يتجاوز ٢٠٠ كلمة.
- يمنح المؤلف (٣٠) نسخة مجانًا.

رئيسة هيئة التحرير

أ.د فتوح عبدالمحسن الخترش

الإشتراكات

	داخل الكويت	خارج الكويت
للأفراد:	٤ د.ك - للأساتذة والطلاب ٢ د.ك	٣٢ دولارًا أمريكيًا - ١٦ دولارًا أمريكيًا
للمؤسسات	١٦ د.ك	٦٤ دولارًا أمريكيًا

ثمن الرسالة: للأفراد	٥٠٠ فلس	للأساتذة والطلاب	٢٥٠ فلس
ثمن المجلد السنوي: للأفراد	٦ د.ك	للأساتذة والطلاب	٣ د.ك

تُوجَّه المراسلات إلى:

رئيسة هيئة تحرير حوليات كلية الآداب

ص.ب: ١٧٣٧٠ - الخالدية

رمز بريدي: 72454 الكويت

هاتف / فاكس: ٤٨١٠٣١٩